
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

مدرسة الحوليات
مفاهيم التحليل البروديلي

محمد حبيدة

شكل الفكر البروديلي في مجال البحث التاريخي حلقة أساسية بل ومركزية ضمن النسق الاسطغرافي المعروف في فرنسا تحت اسم «مدرسة الحوليات» (Ecole des Annales)، ذلك النسق الذي خلق مجموعة متلاحمة من العناصر الجديدة والحاسمة في دراسة وكتابة التاريخ : أولا توسيع حقل المعرفة التاريخية بالانفتاح على مختلف العلوم الاجتماعية والاحتكاك المتواصل بها؛ ثانيا الاهتمام بقضايا أساسية وجديدة تمس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي والذهني وذلك تجاوزا للتاريخ التقليدي المهتم بالأحداث السياسية والعسكرية والديبلوماسية؛ ثالثا إفراز أسلوب جديد في طرح الإشكاليات التاريخية وتصور جديد لزمن التاريخ. إننا نهدف من هذه الدراسة الى عرض وتفسير هذا التصور الجديد في التعامل مع الواقع التاريخي وذلك من خلال المفاهيم والمقولات التي بلورها المؤرخ الفرنسي فيرناند بروديل (F. BRAUDEL) في تحاليله العملية التي نلمسها بوضوح في أبحاثه التاريخية المعروفة ولاسيما «البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني، *1558* ـ *1598*»[1] و«الحضارة المادية، الاقتصاد والرأسمالية، ق. *15* ـ *18*»[2]، وأيضا في نقاشاته النظرية مع المفكرين المنتمين لعلوم الإنسان،[3] إن فهما معمقا لهذه العملية يستلزم الإحاطة بالظرفية الفكرية والابستيمولوجية التي أفرزت فكر بروديل كتتويج لسلسلة من المجهودات النظرية والمنهجية والعملية التي استغرقت عقودا من الزمن. لذلك نقترح جانبين. الأول حول الاحتكاك الفعلي للتاريخ مع العلوم الاجتماعية، والثاني حول المفاهيم البروديلية للتحليل التاريخي.

1 ـ التاريخ والعلوم الاجتماعية : احتكاك طويل ومثمر :

منذ السنوات الأخيرة من القرن 19 بدأ حوار كبير بين التاريخ والعلوم الاجتماعية : جغرافيا، سوسيولوجيا، علم الاقتصاد...، حوار أعطى انطلاقته المفكر والفيلسوف هنري بير (H. BERR). يقول بروديل : «إن هذا الرجل هو، إلى حد ما، الحوليات قبل نشوءها، منذ سنة 1900، وربما قبل ذلك، منذ 1890. اليه يجب الرجوع إذا أردنا أن نعرف كيف بدأ كل شيء»[4]. إن مساهمة بير في تطوير المعرفة التاريخية تمت بواسطة أعمال متعددة. فبالإضافة الى أطروحته حول «تركيب المعارف والتاريخ. محاولة في مستقبل الفلسفة» (1898)، يمكن التركيز على نقطتين أساسيتين :

1 ـ تأسيس «مجلة التركيب التاريخي» سنة 1900 والتي استقبلت في صفحاتها مساهمات متعددة الاختصاصات داعية الى إدراك عميق للواقع الاجتماعي وتحطيم الحواجز بين مختلف علوم الإنسان. بل أكثر من ذلك، شكلت، كما يرى لوسيان فيفر (L. FEBVRE) في مقالة له بعنوان «من مجلة التركيب الى مجلة الحوليات» بؤرة انبتقت منها طموحات إنشاء مجلة جديدة تخدم هي أيضا العلم وتقدمه : «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي»[5]. والمتتبع للظرفية الفكرية لهذه الفترة يلاحظ أن الأولى ظلت على الرغم من مكانتها العلمية على هامش المؤسسات الجامعية وفي حاجة الى «الشرعية الأكاديمية»، بينما ظهرت الثانية في قلب الجامعة، جامعة سترازبورغ التي أريد لها أن تكون واجهة ثقافية لامعة ومجددة للفكر الفرنسي أمام ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى[6].

2 ـ تنظيم ملتقيات فكرية منتظمة، «أسابيع التركيب»، تجمع مجموعة من المثقفين الجامعيين : مؤرخين، جغارفة، سوسيولوجيين، اقتصاديين، فلاسفة، بل وحتى البيولوجيين والفيزيائيين. نذكر منهم على الخصوص المؤرخ الاقتصادي هنري هوسير (H. HAUSSER)، السوسيولوجي والاقتصادي فرانسوا سيمياند (SIMIAND)، السوسيولوجي موريس هالبواش (M. HALBWACHS). الفيلسوف ليون برانشفيك (L. BRUNSCHVICQ) والمؤرخان لوسيان فيفر ومارك بلوك (M. BLOCH) ملتقيات يطرحون فيها أفكارهم ونظرياتهم ومناهجهم للنقاش والحوار البناء[7].

لكن الملاحظ أن هذا الحوار ظل نظريا محضا، ولم يتجسد بشكل عملي

في الأبحاث التاريخية، وهو الهدف الذي سيعمل على تحقيقه المؤرخان فيڤر وبلوك المنبثقان من هذا الحقل الفكري. لقد وفرا شروطا عملية لحوارات مثمرة مع ثلاث اتجاهات فكرية رئيسية :

أولا : مع المدرسة الجغرافية التي برزت بشكل براق في بداية القرن بواسطة مجموعة من الجغارفة الكبار أمثال فيدال دي لابلاش(V. DE LA BLACHE) وألبير دومانجون هذه المدرسة التي كانت تقترح «مقاربة شمولية لتحليل الواقع الاجتماعي تقوم على أساس علاقة جدلية مزدوجة بين الزمن والمجال وبين الجماعات البشرية والوسط الطبيعي» مارست «تأثيرا تأسيسيا» على المؤرخين المذكورين وقدمت «قالبا فكريا للتصورات التاريخية للحوليات»[8]. ومؤلف لوسيان فيڤر الصادر سنة *1922* تحت عنوان «الأرض والتطور البشري. مقدمة جغرافية للتاريخ» يبرز الاحتكاك الفعال بين التاريخ والفكر الجغرافي. احتكاك ولكن أيضا نقاش وتعارض مع الحتمية الميكانيكية لبعض النظريات الجغرافية.

ثانيا : المدرسة السوسيولوجية التي نشطت في نفس الفترة بفضل الفعاليات الكبيرة لإيميل دوركايم (E. DURKHEIM) الذي حاول هو الآخر أن يجعل من علم الاجتماع علما موحدا تصب فيه مختلف آراء علوم الإنسان، وذلك من أجل بناء مقاربة شمولية لفهم الواقع الاجتماعي[9]. لقد لعبت السوسيولوجيا الدوركايمية، على الرغم من بعض نقاشاتها الصراعية مع التاريخ حول مجموعة من التصورات والمفاهيم، دورا أساسيا في بلورة الرؤى الجديدة لمدرسة الحوليات. وبحث مارك بلوك حول «المجتمع الفيودالي»، وحضور السوسيولوجي الدوركايمي، موريس هالبواش في هيئة تحرير المجلة يؤكدان ذلك بوضوح.

ثالثا : مع علماء الاقتصاد الألمان، ولاسيما كارل ماركس (K. MARX) وفون شموليير (G.VON SCHOMOLLER) الذين قدموا للمؤرخين الفرنسيين الجدد أطرا نظرية وأدوات منهجية أساسية للتحليل التاريخي. فهنري بيرين (H. PIRENNE) منذ *1890*، ومارك بلوك سنتي *1908* . *1909*، كانا يتلقيان دروسا دورية في جامعات برلين وليبزيغ، ويحضران، خصوصا الأول منهما، في العقد الأخير من القرن *19*، الملتقيات السنوية للمؤرخين الألمان[10]. ثم إن اسم المجلة الفرنسية الجديدة «حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي» التي

أخرجها للوجود في يناير *1929* لوسيان فيڤر ومارك بلوك بمساعدة المؤرخين بيرين وهوسير وغيرهما، والجغرافي دومانجون والسوسيولوجي هالبواش واخرين، تَمّ اقتباسه، بعد اقتراحات مختلفة ومتعددة من اسم المجلة الألمانية «مجلة التاريخ الاقتصادي»[11].

هذا الحوار النظري العميق والاحتكاك المنهجي الطويل بين التاريخ والأفكار والمناهج الجغرافية والسوسيولوجية والاقتصادية ساهما بقوة في خلق مجلة «الحوليات»، كما ذكرنا، كوعاء لبرنامج جديد وجريء، وأيضا في خلق مجموعة من الأبحاث ذات الأهمية التاريخية البالغة. أبحاث يمكن تقسيمها الى نوعين متكاملين :

النوع الأول. يرتبط بأعمال نظرية ومنهجية حول البحث التاريخي تترجم الإمكانيات العملية لاستفادة التاريخ من علوم الإنسان بهدف توسيع المعرفة التاريخية. ونذكر هنا بالخصوص «معارك من أجل التاريخ» للوسيان فيڤر، وهي مجموعة مقالات ظهرت بالدرجة الأولى في مجلتي «التركيب» و«الحوليات»، ويمتد تاريخ كتابتها من *1906* الى *1952*[12] و«مهنة المؤرخ»[13] لمارك بلوك، الذي يعتبر بيانا تاريخيا لم يتمكن صاحبه من إتمامه بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية التي عصفت بحياته. إنهما كتابان يزخران بالكثير من التعاليم التي تدعو المؤرخين الى ضرورة الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية والاطلاع على نتائج الأبحاث الجغرافية والسوسيولوجية والاقتصادية، وعدم الاقتصار على الوثيقة المكتوبة كعنصر مركزي في التحليل التاريخي كما كان الشأن ضمن التوجه السائد لدى المدرسة التاريخية التقليدية. لقد برز هذا النداء كضرورة لتوسيع دائرة مصادر المعرفة التاريخية بالاعتماد على كل ما من شأنه أن يفيد في فهم وحل القضايا والإشكاليات التاريخية : بقايا أركيولوجية، نقود قديمة، خرائط، رموز... لأن التاريخ حسب فيڤر يحوي كل ما يتصل بالإنسان «كل ما ينتمي للإنسان، ما يعبر عن الإنسان، ما يدل عن حضور الإنسان ونشاطه وأذواقه وطرق عيشه»[14]. إنه وقوف صريح في وجه «المدرسة الوضعية» بممثليها البارزين أمثال إرنست لافيس (E. LAVISSE) وشارل فيكتور لانغلوا (CH. V. LANGLOIS) وشارل سينيوبوس (CH. SEIGNOBOS) الذين هيمنوا، في نهاية القرن *19* وبداية القرن *20*، على الإنتاج التاريخي في قالبه التقليدي الذي تغلب عليه الأحداث ويقيده الارتباط

الضيق بالوثيقة[15]. إنه تمرد ضد النظام الجامعي الذي تقوده السوربون بكل توجهاته ومناهجه وبرامجه، وذلك بأسلوب نقدي لاذع وعنيف. أما البرنامج الفكري البديل الذي اقترحه مؤسسوا الحوليات فينتظم حول ضرورة مركزية وعاجلة : «إخراج التاريخ من انغلاقه التخصصي وفتحه على تساؤلات ومناهج العلوم الاجتماعية الأخرى»[16].

النوع الثاني، أبحاث تاريخية عملية يتجلى فيها بوضوح رصد العلوم الإنسانية. نذكر منها : «الأرض والتطور البشري (*1922*)» للوسيان فيفر؛ «الخصائص الأصلية للتاريخ القروي الفرنسي، ق. *11&18* (*1931*)» و«المجتمع الفيودالي» (*1936*) لمارك بلوك؛ «حركة الأسعار والمداخيل في فرنسا خلال القرن *18*» (*1933*) لإرنست لابروس (E. LABROUSSE).

كل هذه الأعمال المنهجية والعملية هي في حقيقة الأمر نداءات قوية وملحة تدعو المؤرخين الى ضرورة تغيير اهتماماتهم من البحث في الأحداث على شاكلة المنهج السوربوني الى البحث في الواقع المعقد والمتشابك للحياة البشرية في محيطها الجغرافي وبنياتها الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية وأطرها الذهنية «لأن التاريخ، على حد قول مارك بلوك، ليس هو تراكم الأحداث المختلفة التي أنتجها الماضي، إنه علم المجتمعات الإنسانية»[17].

2 ـ مفاهيم جديدة للتحليل التاريخي :

بناءا على هذا الرصيد المنهجي والعملي تمكن فيرناند بروديل من تشكيل مفاهيم جديدة للتحليل التاريخي. ففي أطروحته حول «البحر الأبيض المتوسط...» والتي قدمها للمناقشة عام *1947*، بعد عشرين سنة من البحث والتفكير والتبصر، يكشف عن عمق الواقع التاريخي ويبلور تصورا جديدا يقوم أساسا على تعددية الزمن، والتركيز على القيمة الاستثنائية للأمد الطويل. يقول في مدخل عمله : «ينقسم هذا الكتاب الى ثلاثة فصول، كل واحد يعتبر في حد ذاته محاولة للتفسير. الأول يتعلق بتاريخ شبه ثابت (Quasi-Immobile)، تاريخ الإنسان في علاقاته مع الوسط الذي يحيط به، تاريخ بطيء السيل والتحول مكون في الغالب من رجوعات ملحة وحلقات متكررة باستمرار... فوق هذا التاريخ شبه الثابت يمتد تاريخ بطئ الإيقاع، قد نقول عن طيب خاطر، إذا لم تحرف العبارة عن معناها الكامل، تاريخ اجتماعي،

تاريخ الجماعات والتجمعات... أخيرا الفصل الثالث مخصص للتاريخ التقليدي، إذا أردنا للتاريخ على بعد الفرد وليس الإنسان، التاريخ الحدثي... تاريخ ذو تذبذبات قصيرة، سريعة، متوترة... هكذا توصلنا الى تفكيك التاريخ الى ثلاثة مستويات متدرجة، أو إذا أردنا القول، الى التمييز في زمن التاريخ بين زمن جغرافي، زمن اجتماعي، زمن فردي»[18]. هذا «التصميم الجديد والثوري» حسب تعبير لوسيان فيڤر[19] يطرح جدلية عميقة بين المجال والزمن ويفرز تعددية في الأزمنة أو الآماد : زمن طويل يوافق تاريخا بنيويا يمتد على مدى قرون؛ زمن دوري يوافق تاريخا ظرفيا؛ زمن قصير يوافق تاريخا تقليديا. لقد صرح المؤرخ الاقتصادي إرنست لابروس، وهو أحد الأعضاء الخمسة المكونة للجنة مناقشة بحث بروديل، بحكم هذه الأخيرة قائلا : «إن هذا التصور للتاريخ الذي ينطلق من الأرض نحو الإنسان ونحو أعلى أنشطة الإنسان لجديد وعظيم» فكتاب على هذا المستوى من الغنى الفكري، تضيف اللجنة «سيكون ذا أهمية تاريخية في الاسطغرافيا العالمية»[20]. بالفعل، شكلت أطروحة بروديل منذ صدورها سنة *1949* نموذجا للبحث التاريخي لدى عدد كبير من المؤرخين في فرنسا وخارجها. فلنفسر إذن المفاهيم المكونة لهذا التصور الجديد.

1 ـ **الزمن الطويل (Le Temps Long) :**

الزمن الطويل هو المستوى العميق للواقع التاريخي، هو المركز الذي ينجذب حوله الزمن الدوري والزمن القصير في إطار جدلية الآماد. إنه «تاريخ الأمد الطويل»، ذلك الواقع المعقد الذي يستلزم تحولا عموديا في الرؤية التاريخية : «إن قبوله من قبل المؤرخ، يقول بروديل، هو تهيء لتغيير الأسلوب والموقف، لانقلاب في نظام التفكير، لتصور جديد للواقع الاجتماعي. هو تكيف مع زمن بطيء»[21]، لكن الأمد الطويل لا يمكن فهمه بعمق إلا في نطاق مفهوم آخر موازي وهو «البنية». ذلك أن الأمد الطويل هو تاريخ بنيات جغرافية واقتصادية واجتماعية وذهنية متأصلة وبطيئة التطور. والبنية هنا يستعملها بروديل بمفهومها التاريخي الذي يختلف عن المعنى الذي تمنحه إياها السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا. ففي حواره العلمي مع كلود ليڤي ستراوس (C. LEVI-STRAUSS) يقول بروديل وهو يحدد مفهوم البنية في بعدها الزمني الطويل : «عند الملاحظين للواقع الاجتماعي، البنية هي تنظيم، تجانس،

علاقات ثابتة إلى حد ما بين الواقع والجماهير الاجتماعية. أما بالنسبة لنا، نحن المؤرخون، البنية هي من دون شك تركيب، هندسة، بل أكثر من ذلك، هي واقع يتصرف فيه الزمن بشكل سيء ويقوده على نحو بطيء جدا. فبعض البنيات، بفعل بقائها حية زمنا طويلا، تصير عناصر ثابتة على مدى أجيال لا نهاية لها: إنها تثقل كاهل التاريخ وتعرقله، وهي بذلك تتحكم في صيرورته... إنها حواجز ترسم حدودا يعجز الإنسان بتجاربه عن تجاوزها. فكروا في صعوبة تحطيم بعض الأطر الجغرافية، بعض الوقائع البيولوجية، بعض حدود الانتاجية... فطيلة قرون من الزمن والإنسان سجين مناخات ونباتات ومواشي وزراعات في إطار توازن بطيء البناء يصعب تجاوزه. انظروا الى مكانة الانتجاع في الحياة الجبلية، الى استمرارية بعض قطاعات الحياة البحرية متجدرة في نقاط معينة من المفاصل الساحلية، انظروا مدى ديمومة تأصل مواقع المدن، مدى استمرارية الطرق والتنقلات، مدى الثبات المدهش للإطار الجغرافي للحضارات»[22]. هذا التحديد الطويل يلخصه بييرشوني (P. CHAUNU) في الفكرة التالية: «كل شيء داخل مجتمع واقتصاد يكون مشبعا بأمد كاف يجعل حركته (حركة الشيء) تفلت عن الملاحظة العادية...» لكن يضيف نفس المؤرخ أن «هذه البنيات ليست جامدة»[23].

إن التحليل التاريخي المبني على الأمد الطويل يظهر بوضوح في الفصل الأول من البحر المتوسط...». المعنون بـ «حصة المجال» والذي يتعرض فيه بروديل لمختلف الوحدات الجغرافية المكونة للمجال المتوسطي بأطرها البشرية ووثائر الحياة بها: الجبال بسكانها وتقاليدها والتنقلات المنتظمة والمتكررة لرعاتها ومواشيها؛ السهول بالملاكين الكبار لأراضيها وفلاحيها الفقراء وأمراض مياهها الراكدة (الملاريا)؛ البحار بموانئها ورياحها وإيقاعاتها الملاحية؛ الجزر كمحطات للبحارة وبؤر للقرصنة وملاجئ للمهاجرين؛ الصحاري كوجه آخر للبحر المتوسط بأساليب عيشها وحركتها المبنية على الترحال ورواج القوافل الحاملة للذهب واستغلال الواحات؛ المناخ كوحدة فيزيائية بدرجات تغيره وبفصوله المتعاقبة والمحددة لإيقاعات معينة من الحياة الزراعية (الجفاف) والملاحية (التوقف الخريفي) والبيولوجية (أوبئة الصيف)؛ الطرق والمدن أو المدن والطرق كوحدة بشرية؛ الطرق البرية والبحرية والنهرية بمحاورها الرابطة بين البحر المتوسط وأوربا الوسطى والشمالية والأطلسية، ووسائل نقلها وحمولاتها، ثم

المدن ببنياتها الديمغرافية ووظائفها وعوامل قوتها وأزماتها[24].

نفس الرؤية نلمسها في عمله الضخم «الحضارة المادية...» والذي يأخذ بعدا أوربيا، بل وعالميا في إطار تاريخ مقارن يشمل القارة العجوز وآسيا وإفريقيا وأمريكا على مدى الأزمنة الحديثة. ففي الجزء الأول الذي يمنحه بروديل عنوانا إيحائيا «البنيات اليومية» (les structures du quotidien) يطرح مجموعة من العناصر التي تكون البنيات الأساسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والبيولوجية والتقنية، ويعمل في ذات الوقت على تتبع إيقاعات تطورها وثباتها في الزمن الطويل من القرن 15 إلى القرن 18 : ساكنة العالم بأرقامها ونظامها البيولوجي (مجاعات، أوبئة)؛ الأغذية اليومية (قمح، أرز، ذرة بمجالاتها الجغرافية وأسعارها وتنقلات زراعاتها)؛ المشروبات (ماء، خمر، قهوة، شاي...)؛ السكن (أدوات البناء، منازل القرى، منازل المدن)؛ اللباس والموضة؛ التقنيات (المطبعة، الملاحة...)؛ النقود (الرواج النقدي، المقايضة)؛ المدن (ظاهرة التمدن والمدن الكبرى)[25]. هذه العناصر تشكل «الحياة المادية» أو «الحضارة المادية» للإنسان أو بعبارة أخرى، بروديلية دائما، «الاقتصاد التحتي» (Infra-économie) أي النشاط الأولي والأساسي الذي تمارسه الجماعات البشرية في كل مكان بوتائر بطيئة التطور.

إن دراسة بروديل لبنيات الحياة المادية في بحثيه المذكورين تنبني من الوجهة الفكرية على الاحتكاك العميق بين مدرسة الحوليات واتجاهين رئيسيين في التحليل وتصور الواقع الاجتماعي، وهما المادية التاريخية والبنيوية. بالنسبة للعلاقة مع الاتجاه الأول يمكن القول أن تلاقحا مهما، طويل الأمد ولكن غير صريح تم بين مؤرخي الحوليات والفكر الماركسي. فبروديل الذي يكن تقديرا علميا كبيرا لكارل ماركس يبدو في دراسته للحياة المادية وكأنه يجسد عمليا التصور المادي للتاريخ. فلقد جاء في الإيديولوجيا الألمانية : «ليعيش الإنسان عليه قبل كل شيء أن يشرب، أن يأكل، أن يلبس... فأول واقع تاريخي هو إذن إنتاج الوسائل التي تمكن من تلبية هذه الحاجيات، إنتاج الحياة المادية نفسها، وهنا يكمن الواقع التاريخي، الشرط الأساسي لكل التاريخ، الذي علينا اليوم، كما هو الشأن منذ آلاف السنين أن نؤديه يوما عن يوم»[26]. إنه تصور يحمل ذلك البعد المركزي في النسق البروديلي : الأمد الطويل. ويعترف بروديل بهذا السبق حين يقول : «عبقرية ماركس وسر سُلطته الدائمة يرجعان

لكونه كان أول من ابتكر نماذج اجتماعية حقيقية وانطلاقا من الأمد التاريخي الطويل»[27]. أما عن الاتجاه الثاني فيتمثل في الاعتناق المنهجي للبنيوية ولكن بأسلوب نقدي يجعل مفهوم البنية كما ذكرنا يدرك وينجز عمليا في البعد الزمني الطويل. وهو اعتناق أملته الظرفية الفكرية التي عرفتها فرنسا منذ الخمسينات والتي تتجلى في هيمنة بنيوية ليفي ستراوس على عمليات التحليل في علوم اجتماعية كثيرة[28].

إن الأمد الطويل كمفهوم أساسي لفهم التاريخ وتحليله يهم بالدرجة الأولى المؤرخ المتتبع لنتائج أبحاث العلوم الإنسانية، كما يهم أيضا المفكرين العاملين ضمن إطار هذه العلوم نفسها، وهو أمر ركز عليه بروديل بإلحاح داعيا إياها الى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار البعد التاريخي الجديد المتمثل في الزمن الطويل وذلك في إطار استمرارية الاحتكاك المثمر بين التاريخ وعلوم الإنسان. يقول في حواره مع هذه العلوم : «سأتحدث عن زمن التاريخ، وهو حديث موجه بالخصوص الى جيراننا في علوم الإنسان : اقتصاديين، إيثنوغرافيين، إيثنولوجيين أو (انتربولوجيين)، سوسيولوجيين، سيكولوجيين، لسانيين، ديمغرافيين، جغارفة، بل وحتى الرياضيين الاجتماعيين والإحصائيين ـ كل الجيران الذين تتبعناهم منذ سنوات طويلة في تجاربهم وأبحاثهم، لأنه كان يبدو لنا (ولايزال) أن سيرنا وراءهم أو احتكاكنا بهم يضيء التاريخ بنور جديد. ولعلنا نتوفر بدورنا على شيء نؤديه لهم. فمن التجارب والمحاولات الأخيرة للتاريخ، يبرز تصور تتزايد دقته أكثر فأكثر، حول تعددية الزمن والقيمة الاستثنائية للزمن الطويل. هذا المفهوم الأخير أكثر من التاريخ نفسه ـ تاريخ المائة وجه ـ من شأنه أن يثير اهتمام العلوم الاجتماعية جاراتنا»[29].

2 ـ الزمن الدوري :

الزمن الدوري أو زمن الحلقـــات الدورية يعني به بروديل «تاريخ الظرفية» (Histoire de la conjoncture)، تاريخ التذبذبات الدورية التي يعيشها الاقتصاد كواقع ارتفاعات وهبوطات الأسعار التي يمكن التعامل معها عبر مقاطع زمنية عريضة : 10، 20 أو 50 سنة[30]. فإذا نظرنا في الفصل الثاني من الأطروحة المعنون بـ «مصائر جماعية وحركات المجموع» وأخذنا على سبيل المثال أسعار القرن 16 الذي عرف تراكما ورواجا ماليين كبيرين سنجد البيان التالي[31] :

ـ ارتفاع الى حدود 1558 ـ هبوط 1558 ـ 1567
ـ ارتفاع 1567 ـ 1576 ـ هبوط 1576 ـ 1588

إن تاريخ الظرفيات المبني على أساس الأرقام والجداول والرسوم البيانية نشأ في فرنسا بفعل الاحتكاك مع علماء الاقتصاد الألمان، كما ذكرنا سالفا، وفي ظل مناخ أزمة 1929 التي دفعت بالمؤرخين والاقتصاديين الى البحث في أصولها التاريخية والتساؤل عن تعاقب مراحل الاتساع ومراحل التراجع الاقتصادي. كانت النتيجة : بروز أعمال مهمة لباحثين اقتصاديين أمثال فرانسوا سيمياند وهنري هوسير وخصوصا إرنست لابروس الذي كشف عن تتابع الدورات الاقتصادية في فرنسا خلال القرن 18 والظرفية التي أفرزت الثورة الفرنسية سنة 1789 [32]. والجدير بالذكر أن الظرفية امتدت مع بروديل لتشمل بالإضافة الى دورات الأسعار، دورات الإنتاج (ارتفاعات وهبوطات إنتاج وتجارة الحبوب) والدورات الديمغرافية (ارتفاعات أعداد السكان وهبوطها) والدورات البيولوجية (الظهور والاختفاء المتعاقبان للأوبئة والمجاعات)..

في الواقع إن الفصل الثاني من «البحر المتوسط...» لا يقتصر فقط على الحلقات الدورية، بل يجمع في طياته وعلى نحو جدلي عميق البنيات والظرفيات أي الزمن الطويل والزمن الدوري. إنه «يهتم ببنيات اجتماعية، أي بميكانيزمات بطيئة التآكل، ويهتم أيضا بحركتها»، إنه يجمع بين «الثابت والمتحرك» بين «البطيء والسرعة» وهما حقيقتان... ترتبطان في الحياة اليومية»[33] والملاحظ في إطار العلاقة الجدلية بين هذين المستويين التاريخيين، أن الدورات والبيدورات والأزمات البنيوية إذا تكررت باستمرار ولم تؤدي الى تراكم حامل لتغيير نوعي تندرج في البنية وتصبح جزءا لا يتجزء من الزمن الطويل لأنها «تخفي انتظامات واستمراريات الأنساق أي الأساليب القديمة (Systemes) للعمل والتفكير والأطر المستعصية المقاومة للموت»[34].

إن تلاحم الزمن الطويل والزمن الدوري أفرز في الخمسينات مجموعة من الأبحاث ذات أهمية بالغة، تخص الرواجات التجارية المنجزة على مجالات جغرافية شاسعة. نخص بالذكر منها عملين أساسيين : الأول لبييرشوني حول اشبيلية والمحيط الأطلسي في القرنين 16 و17 [35]، والثاني لفريديريك مورو حول البرتغال ونفس المحيط في القرن 17 [36]. وفي نفس السياق يمكن أن نلفت النظر الى أطروحات أخرى تجمع هي أيضا بين البعدين الزمنيين المذكورين لكن

في إطار إقليمي، ذلك أنها أظهرت في الستينيات نتائج باهرة في البحث التاريخي الجامع بين التاريخ الاقتصادي القائم على أساس سلسلات ودورات الإنتاج والأسعار، والتاريخ الديمغرافي المستند على وثائر النمو السكاني. نذكر بالخصوص أعمال باريل حول بروفانسيا القروية[37]، وفيلار حول إقليم كاطالونيا الحديثة[38] ولا دوري حول فلاحي منطقة لانغ دوك[39].

3 - **الزمن القصير** (Le Temps court) :

المستوى الثالث من المستويات المفاهيمية والتاريخية للتحليل البروديلي يرتبط ب «التاريخ التقليدي المتنبه للزمن القصير، للفرد، للحدث»، التاريخ الذي عودنا منذ وقت طويل على سرده السريع، الدرامي، ذي النفس القصير»[40]. إن الزمن القصير هو زمن الإخباري والصحفي، فالمدونة الإخبارية أو الجريدة تقدمان أحداث وحوادث من أحجام مختلفة : أحداث تدعى تاريخية (حرب، ثورة، انقلاب...) وحوادث ترتبط بحياة كل يوم (حريق، كارثة سككية، ثمن القمح، جريمة، فيضان...) أي كل الوقائع التي تشكل الغنيمة اليومية للميكروسوسيولوجيا والسوسيوميتري والميكروتاريخ. ويرى بروديل أنه من الواجب التعامل بحذر شديد مع هذه الأحداث والحوادث الجارية في زمنها القصير، لأن هذا المستوى من الزمن يعد «أكثر الآماد تقلبا وخداعا»[41]. فالأحداث عبارة عن «غبار، تخترق التاريخ كأضواء خافتة وقصيرة، ما تلبث أن تبرز حتى تعود للظلام وغالبا للنسيان»[43].

والملاحظ أن بروديل، وهو يناقش مفهوم الزمن القصير، عمل على رفع اللبس الذي قد يحصل في الخلط بين التاريخ الحدثي والتاريخ السياسي. فهذا الأخير ليس بالضرورة حدثيا. «إن المشكل، يقول نفس المؤرخ ، يتمثل في كون التاريخ خلال المائة سنة الأخيرة، وهو يغلب عليه الطابع السياسي، ركز على مأساة «الأحداث الجسام» وعمل ضمن وحول الزمن القصير»[44] إن التاريخ السياسي باستطاعته الاهتمام بقضايا أكثر عمقا من التاريخ الحدثي، فعوض التركيز على الأشخاص وتسلسل الأحداث يمكن الدخول في مجالات رحبة لدراسة الميكانيزمات الاجتماعية للسلطة والعلاقات بين الدولة والمجتمع. إنه ينجز اليوم عبر قنوات متعددة [45]:

1 - عبر الاهتمام بالسياسة كشكل اجتماعي وثقافي،
2 - عبر مقاربة انتروبولوجية للمؤسسات السياسية؛

3 ـ عبر تبصر حول دور الإيديولوجيا في تكوين الحقل السياسي.

إن الفصل الثالث من كتاب «البحر المتوسط...» الذي يحمل عنوان «الأحداث السياسية والأفراد» يجمع في طياته بين تحليل المؤسسات السياسية والتنظيمات العسكرية البرية والبحرية للقوتين الإسبانية والتركية، وعرض الأحداث الكبرى الناتجة عن صراع هاتين القوتين داخل الحوض المتوسط في النصف الثاني من القرن 16، أي على عهد فيليب الثاني ملك إسبانيا. وهو بذلك يعتبر مساهمة حية في التاريخ السياسي والديبلوماسي والعسكري، وتنازلا كبيرا من قبل بروديل للتاريخ التقليدي وللمدرسة «الوضعية» أو «المنهجية» التي كانت لاتزال في الأربعينيات تحافظ على مواقع مهمة في المؤسسات الجامعية[46]. لكن وهو يمنح هذا التنازل يجعل التاريخ التقليدي في المرتبة الثالثة والأخيرة ليترك المكان الرئيسي للقضايا والمشاكل الأساسية في تاريخ الإنسان: الوسط الجغرافي ـ البشري، الديمغرافيا، المجتمع، الاقتصاد.

إن البحث في «البحر الأبيض المتوسط...» هو عمل عمر بأكمله. فبروديل، وهو يهيء كتابه للطبعة الثانية سنة 1966 والتي انبنت عليها الترجمة الانجليزية، قام بإغناء كمي للكتاب يمثل 20٪ وبتوسيع للإطار الزمني للدراسة ليشمل حتى النصف الثاني من القرن 15، وعيا منه أن «كتب التاريخ تهرم اليوم بسرعة أكبر من الأمس وذلك تحت الثقل المتزايد لمعارفنا وزحف العلوم الإنسانية، جاراتنا. فبمرور وقت وجيز تشيخ مصطلحاتها وما كان يشكل جدتها يصير تقليديا»[47].

لقد هدف عمل فيرناند بروديل الى استيعاب زمن التاريخ في تعدديته (زمن طويل، زمن دوري، زمن قصير) وفهم الواقع الاجتماعي في شموليته لبناء تاريخ كلي (Histoire totale) يهتم بكل ما يتصل بالحياة البشرية من بنيات وتطورات جغرافية، ديمغرافية، اقتصادية، اجتماعية، سياسية، ثقافية، ذهنية، ويتتبع مختلف علوم الإنسان في مناهجها ونتائج أبحاثها. فالنجاح الساحق للتاريخ الجديد (La Nouvelle Histoire)، تاريخ مدرسة الحوليات، في فرنسا وخارجها، في النصف الثاني من هذا القرن[48] وهيمنته الواضحة على الساحة الجامعية والفكرية وحتى الإعلامية يكمن في تحكم المؤرخين المحتكين بالعلوم الاجتماعية في التعامل مع التاريخ في تعددية آماده وجدليتها. إنه تحكم يجعل التاريخ مقاربة شمولية أساسية لفهم الواقع الإنساني في عناصره وكليته،

في تطوراته اللامتوازية والتغيرات الدورية لبعض مكوناته وفي الاستمرارية الطويلة الأمد لبنياته الجغرافية والبشرية والاجتماعية. تحكم يجعله يهدف الى تأسيس ميطودولوجيا مشتركة للعلوم الإنسانية.

الهوامش :

1) F. BRAUDEL, la méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de philippe II (1558-1598). Paris, A. Colin 1949, 2 vol., nouv. éd. 1986, 2, vol., 588 - 628 p.
2) F. BRAUDEL "Civilistion matérielle, économie et capitalisme, XV-XVIII siècles, Paris, nouv. éd. 1986-1988, 3 vol. : I, les structures du quotidien, II, les jeux de l'échange, III, le temps du monde.
3) F. BRAUDEL "Histoire et sciences sociales, la longue durée", Annales ESC, n° 4, 1958, pp. 725-573, le même article est repris in, Ecrits sur l'histoire, Paris, Flammarion, 1969, pp. 41-83.
4) F. BRAUDEL, "Ma formation d'historien", in Ecrits sur l'histoire II, Paris, Arthaud, 1990, p. 17.
5) L. FEBVRE, "Hommage à Henri Berr. de la "Revue de synthèse aux annales" (1952), in Combats pour l'histoire, Paris, A. Colin, 1953, pp. 340-341.
6) Cf. J. REVEL, "Histoire et sciences sociales : les paradigmes des Annales", Annales ESC, n° 6, 1979, p. 1367.
7) L. FEBVRE, op. cit, p. 341.
8) A. BURGUIERE, "Histoire d'une histoire, la naissance des Annales", Annales ESC, n° 6, 1979, p. 1351, Cf. aussi J. REVEL, op. cit, 1362-1364.
9) A. BURGUIERE, op. cit, pp. 1351-1352.
10) F. MENDELS, "Histoire économique", in Dictionnaire des sciences historiques, publ. sous la direction de A. Burguière, Paris, P.U.F., 1986, pp. 215-223.
11) Cf. P. LEUILLOT, "Aux origines des Annales d'histoire économique et sociale' (1928). Contribution à l'historiographie française", in Mélanges en l'honneur de Fernand Braudel, Toulouse, Privat, 1973, T.II, pp. 317-324.
12) Cf. supra, n° 5.
13) M. BLOCH, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien (1941), nouv. éd; préface de G. Duby, Paris, A. Colin, 1974, 167 p.
14) L. FEBVRE, "Vers une autre histoire" (1949), in Combats... p. 428.
15) Cf. G. BOURDE et H. MARTIN, "les écoles historiques, Paris, éd. du Seuil", 1983, pp. 137-170.
16) J. REVEL, op. cit, p. 1362.
17) M. BLOCH, op. cit, p. 166, Le dialogue entre les science de l'homme s'est poursuivi et se poursuit jusqu'à nos jours avec grand intérêt. Cf. le numéro spécial (n° 5) des Annales ESC. 1975, consacré à "Histoire et Sciences".
18) F. BRAUDEL, "La méditerranée.." T. I, pp. 13-14.
19) L. FEBVRE, vers une autre histoire... p. 432.
20) E. LABROUSSE "En guise de toast à Fernand Braudel; aux vingt-cinq ans de la Méditérranée", in mélanges..., T. I. pp. 10-11.
21) F. BRAUDEL, "Histoire et science sociales... p. 54.
22) Ibid, pp. 50-51.
23) P. CHAUNU, Séville et l'Atlantique, 1504-1650, Paris, 1959, T. VIII, p. 12.
24) F. BRAUDEL, la Méditerranée.. T. I, 1ère partie "la part du milieu", PP. 22-322. Cette

géo-histoire" a relancé les débats entre historiens et géographes sur les "frontières" et les domaines communs des deux disciplines; Cf. la controverse engagée à propos des idées du géographe E. Juillard, par Robert Mandou, "Géographie humaine et histoire sociale", Annales ESC, n° 4, 1957, p. 619-627.

25) F. BRAUDEL, "Civilisation matérielle.." T. 1, 544 p.
26) K. MARX et F. ENGELS, "l'Idéologie allemande (1846), Paris, éd. sociales, 1968, p. 57.
27) F. BRAUDEL, "Histoir et sciences sociales... p. 80 - sur les rapports entre le marxisme et l'école des Annales, voir en particulier, P. VILAR, "Histoire marxiste, histoire en construction" in faire de l'histoire T.I., Paris, Gallimard, 1974, pp. 169-209 et "une histoire en construction, approches marxistes et problématiques conjoncturelles", Paris, Gallimard-Seuil, 1982, et l'étude de G; BOIS, "Marxisme et histoire nouvelle" in la Nouvelle Histoire, Paris, Retz, 1978, pp. 375-393.
28) Sur les rapports entre la recherche historique et les concepts d'analyse structuraliste, voir le numéro spécial des Annales ESC, n° 3-4, 1971, et les deux articles publiés dans la Novuelle Histoire, l'un de A. BURGUIERE, "l'Anthropologie historique", pp. 37-61 et l'autre de K. POMIAN, "l'Histoire des Structures", pp. 528-553.
29) F. BRAUDEL, "Histoire et sciences sociales..., pp. 43-44.
30) Ibid, p. 44
31) F. BRAUDEL, "La méditerranée... T.I., p. 476.
32) E. LABROUSSE, Esquisse du mouvement des prix et des revenus en France au XVIII siècle, Paris, 1933.
33) F. BRAUDEL, "La méditerranée... T.I. p. 325.
34) F. BRAUDEL "Histoire et sciences sociales..., p. 53
35) P. CHAUNU, Seville et l'Atlantique, 1504-1650, Paris, 1955-1959, 12 vol.
36) F. MAURO, "Le Portugal et l'Atlantique au XVII siècle (1570-1670). Etude économique, Paris, 1960.
37) R. BAEHREL "La basse provence rurale du XVI au XVIII siècle, Paris 1961.
38) P. VILAR, "La catalogne dans l'Espagne moderne", Paris 1962.
39) E. LE ROY-LADURIE "les paysans de Languedoc, XV-XVIII siècles, Paris, 1966.
40) F. BRAUDEL, "Histoire et sciences sociales" ... p. 44
41) Ibid, p. 46
42) F. BRAUDEL, "la méditerranée... T. II, p. 223.
43) F. BRAUDEL "Histoire et sciences sociales... p. 46
44) Ibid.
45) A; BURGUIERE, "L'Ecole des Annales", in Dict... p. 50-51.
46) G; BOURDE et H. MARTIN, op. cit., p. 189.
47) F. BRAUDEL, "La Méditerranée... T.I. p. 16.
48) L'Ecole des Annales, dont les orientations de la recherche historique sont multiples et complexes y compris le "retour à l'événement", commence à susciter dans les dix dernières années des réactions vives et critiques de la part des historiens travaillant en dehors du système "Nouvelle Histoire" et même parmi certains de ses collaborateurs. On peut se référer entre autres aux études suivantes : M. MORINEAU "Allergico cantabile" Annales ESC., n° 4, 1981, pp. 623-649, H. COUTAU-BEGARIE, le phénomène nouvelle histoire. Stratégie et idéologie des nouveaux historiens, Economica, 1983, 2ème éd., 1989, F. DOSSE, l'histoire en miettes. Des Annales à la nouvelle histoire, la découverte, 1987, G; THUILLIER et J; TULARD, Les écoles historiques, P.U.F., 1990.